Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربيــة للعلــوم الانســانيــة
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672

الاغتراب النفسي وأثره في بناء شخصية البطل في المقامة العباسية: الاغتراب عن الذات الأصيلة نموذجاً

إنعام جبر حسن
عباس جخيور سدخان
anam.j.hassan002@utq.edu.iq
قسم اللغة العربية ، كلية التربية للعلوم الإنسانية ، جامعة ذي قار

الملخص

يمثل الاغتراب من أبرز الظواهر السوسيولوجية التي تتجلى في نتاج الأدباء، كتّاباً وشعراء ، ولاسيما أولئك الذين يعانون من اضطهاد السلطة والمجتمع ، وينعكس ذلك بوضوح في أعمالهم الأدبية . ويتناول هذا البحث مظاهر هذا الاغتراب من خلال تحليل شخصية البطل في المقامات العباسية بوصفها انعكاساً للتحولات العميقة التي شهدها المجتمع العباسي في ميادينه الفكرية والاجتماعية ، فقد عاشت تلك المرحلة اضطراباً سياسياً وأخلاقياً عميقا، مما أثر ذلك في نفسية الإنسان، ولا سيما الأدباء والمبدعين الذين عاشوا في ذلك العصر، فولّد لديهم شعوراً بالاغتراب النفسي والاجتماعي، كما ساهمت الظروف السياسية والاقتصادية غير المستقرة في تفاقم الفقر بين الطبقات الدنيا ، فانتشرت ظاهرة الكدية والاستجداء بوصفها وسيلة للعيش والهروب من قسوة الواقع . وفي أتون هذا الواقع المتقلّب، استطاع كتّاب المقامات أن يجعلوا من شخصية البطل إنساناً مغترباً عن ذاته الأصيلة، إذ وجد نفسه ممزقاً بين ماضيه المشرق وواقعه المادي المتقلب، فهو يعيش حالة من الاغتراب النفسي، تجعله غير قادر على التوفيق بين ما يؤمن به من قيم أصيلة وبين ما تفرضه عليه الحياة من تنازلات ، فهو يدرك مكانته القديمة ، لكنه يُضطر إلى ارتداء أقنعة جديدة تضمن له البقاء في عالم متقلّب لا مكان فيه للثبات أو الصدق مع الذات، لذلك فهو يحاول عبر ذكائه وحيله أن يتكيّف مع واقع لا يرحم ، وهكذا أصبحت شخصية البطل في المقامات رمزاً إنسانياً عميقاً للتمزق النفسي والبحث عن الذات في عالم متبدّل لا يستقر على حال .

الكلمات المفتاحية: البطل ، المقامة ، العصر العباسي ، الاغتراب النفسي، الذات

Journal of the College of Education for Humanities
University of Thi-Qar \ ISSN:2707-5672

مجلة كلية التربية للعلوم الانسانية
جامعة ذي قار / الرقم المعياري 2707-5672

Psychological Alienation and Its Impact on the Formation of the Hero's Personality in the Abbasid Maqama: Alienation from the Authentic Self as a Model

Inam Jabr Hassan
Abbas Jakhyour Sadkhan
Department of Arabic Language, College of Education for Human Sciences, University of Dhi Qar
anam.j.hassan002@utq.edu.iq

Abstract

Alienation is one of the most prominent sociological phenomena reflected in the works of writers and poets, especially those who suffer from oppression by authority and society. This is clearly manifested in their literary productions. This research examines the manifestations of such alienation through an analysis of the hero's character in the Abbasid maqamat, as a reflection of the profound transformations experienced by Abbasid society in its intellectual and social spheres. That period witnessed deep political and moral turmoil, which significantly affected the human psyche, particularly among writers and intellectuals who lived during that era. This gave rise to feelings of psychological and social alienation. Moreover, unstable political and economic conditions contributed to the spread of poverty among the lower classes, leading to the emergence of begging and mendicancy as means of survival and escape from the harshness of reality. Amid this turbulent reality, maqama writers succeeded in portraying the hero as a person alienated from his authentic self. He finds himself torn between a glorious past and a fluctuating material present. He lives in a state of psychological alienation that prevents him from reconciling his genuine values with the compromises imposed by life. Although he is aware of his former status, he is compelled to adopt new masks that ensure his survival in an ever-changing world where stability and authenticity have no place. Thus, through his intelligence and cunning, he attempts to adapt to a merciless reality. In this way, the hero's character in the maqamat becomes a profound human symbol of psychological fragmentation and the search for identity in a constantly changing world

Keywords: Hero, Maqama, Abbasid Era, Psychological Alienation, Self

المقدمة

يُعدّ الاغتراب من المفاهيم الأساسية التي تعكس صلة وثيقة بالإنسان وظروف وجوده ؛ لأنه جزء من طبيعة الإنسان، بل يمكن اعتباره دافع من دوافعه الأساسية ، إلا أن مظاهره تختلف من إنسان إلى آخر ، ومن مجتمع إلى آخر ؛ لأنه يتلّون بطبيعة صاحبه ، وبالمجتمع وما يحكمه من أنظمة ومؤسسات ، ولذلك شغل موضوع الاغتراب مساحة واسعة من اهتمام الأدباء والمفكرين والفلاسفة والأنثروبولوجيين والفنانين، إذ برز كمفهوم منافس لكثير من المصطلحات في ميادين النقد والأدب ، وتناولت عدة حقول معرفية، كعلم النفس والتحليل الاجتماعي واللاهوت، هذا المفهوم بوصفه عنصرًا أساسًا في كثير من الدراسات. فهو ظاهرة إنسانية رافقت أشكال الحياة الاجتماعية المتنوعة ، وفي أغلب الثقافات التي بناها الإنسان ، ومع مرور الزمن ، تعددت دلالاته ، فكل مصطلح يبدأ بسيطاً محدود المعنى ، ثم يتسع مع تطور الزمن ؛ ليأخذ أبعاداً أعمق ومعاني أكثر (الفلاحي، 2013: 11) .

ويرى الكثير من الباحثين وعلماء التحليل النفسي كفرويد، وإريك فروم، وهورني ((إن الاغتراب حالة نفسية يعاني أصحابها من الشعور بعدم الارتياح وعدم الاستقرار والقلق ، والشعور بالضياع والعزلة ، وعدم الفعالية والوحدة والتضاؤل ، وهذا الشعور كثير ما يؤدي إلى نتائج نفسية منها : تفكك مشاعر الفرد، وإحساسه بعدم أهميته والفصامية والذهانية ، وبالتالي اختلال الشخصية)) (الراوي، 2002 : 65) .

والثابت أن مفهوم الاغتراب قد ظهر في اللغة اللاتينية باعتباره ترجمة لبعض المصطلحات الإغريقية ، التي كانت تعبّر عن حالة خروج الكائن عن ذاته ، ومن هنا أصبح الاغتراب دالاً على وضع الإنسان الذي يتخطى حدوده الداخلية ويتجاوز ذاته (خليفة ، 2003 : 23 - 24) .

ومن بين أبرز أبعاد هذا المفهوم يبرز الاغتراب النفسي، بوصفه شكلاً داخلياً يعكس تمزق الإنسان بين ذاته وعالمه، لذلك فهو يشكّل مفهوماً واسعاً لا يمكن حصره في نوع مستقل ومحدد ؛ نظراً لشموليته واتساع دلالاته، و((نظراً لتداخل الجانب النفسي للاغتراب وارتباطه بجميع أبعاد الاغتراب الأخرى : الثقافي ، والاقتصادي، والسياسي ... [كما أنه] يُستخدم هذا المفهوم للإشارة إلى الحالات التي تشهد فيها الشخصية ضعفًا أو تفككًا في وحدتها، بفعل الضغوط الثقافية والاجتماعية التي يفرضها المجتمع، الأمر الذي يعكس نموًا مختلًا في البناء النفسي للإنسان، إذ تتراجع لديه مشاعر التماسك والاستمرار، وتظهر الاضطرابات النفسية أو التناقضات بوصفها مظاهر لأزمة اغتراب يعيشها الفرد)) (خليفة ، 2003 : 80 - 81) .

يتفق علماء النفس على أن تركيز الفرد على ذاته وانفصاله عن محيطه الاجتماعي ، وضعف استجابته لتحديات الحياة وانتمائه لها يؤثر سلباً على توازنه النفسي، مما يجعله عرضة لمظاهر الاغتراب، مثل الشعور بالعزلة الموحشة والاكتئاب والقلق والتسلط والتشيؤ والنزعة العدوانية (الجماعي، 2010م : 65) ، فالانغلاق على الذات والابتعاد عن المجتمع والحياة قد يؤدي إلى مشكلات نفسية خطيرة تؤثر على توازن الفرد وسلوكه .

وعليه، إن الاغتراب النفسي إلى حالة من الانفصال الوجداني، يصاحبها شعور بالعزلة وغياب الإحساس بالانتماء. ، مع ضعف الثقة ورفضه للقيم والمعايير الاجتماعية، إلى جانب ما يعانيه نتيجة الضغوط النفسية، وما يترتب عليها من تراجع في تماسك الشخصية وتعرّض بنيتها للوهن أو التفكك، بفعل التفاعلات الثقافية والاجتماعية السائدة داخل المجتمع (زهران، 2004 : 12) ، فهو من أكثر صور الاغتراب تعقيداً ويمكن وصفه بأنه إدراك الفرد بانفصاله عن ذاته (الجماعي، 2010م :

64) ، وفقدان الاتصال بجوانبها الداخلية ، وإن مثل هذا الاغتراب ((لا يمكن أن يتم دون مشاعر نفسية ، كالخوف أو القلق أو الحنين، تسببه أو تصاحبه أو تنتج عنه)) (رجب ، 1988 : 41) .

أما فروم يرى أن الاغتراب هو ((الفشل في التفاعل بين العوامل النفسية والعوامل الاجتماعية، فالإنسان عنده قد هرب من روابط العصور الوسطى إلا أنه لم يكن حراً في إقامة حياة ذات معنى تقوم على العقل والحب، فحدث ما سماه بالانفصال أو التخارج وهو انفصال الفرد عن ذاته حيث تبدو الذات غريبة عنه أي لا يعايش ذاته ككيان فردي ولا كشخص مفكر ومحب وقادر على الاحساس ولكننا نجده غير قادر على الانتاج والابتكار أي أنه أخفق في أن يشكل نوعية الذات التي ينبغي أن يكون عليها)) (دمنهوري، 1417هـ : 8 - 9) .

وفي ضوء ذلك يمكن القول : يُعدّ الاغتراب النفسي حالة من الخلل في التفاعل الذي يسعى إلى تحقيق التوازن بين حاجات الفرد وقدراته ومتطلباته، وبين معطيات الواقع بأبعاده المتعددة، وللتغلب على هذا الاضطراب لزم أن يتوفر في هذه العلاقة الشعور بالأمان، وتحقيق الذات للإنسان بوصفه إنساناً كي تتحقق له الصحة النفسية والبعد عن الاغتراب (دمنهوري، 1417هـ : 11) . أما علم النفس الأدبي هو : ((علم يبحث في عقل الإنسان من حيث كونه معبراً عن أفكاره بأساليب لغوية راقية ، أو مقدراً لتعبير الناس عن أفكارهم بتلك الأساليب)) (عبد القادر : 18) .

وعليه أن العصر العباسي كان مليئاً بالاضطرابات الاجتماعية والسياسية ، مما جعل الأفراد يشعرون بالضياع والاغتراب، ((فلم يكن هذا المجتمع يساعد الأفراد على تحقيق ذواتهم والكشف عن أنفسهم ، بقدر ما كان يدفعهم إلى التخفي والتنكر)) (رجب ، 1988 : 62) ، وبالتالي إن شخصيات المقامات ليست مجرد شخصيات خيالية فقط ، بل هي إسقاط لحالة الفرد في مجتمع متغير ، وهذا ما يهتم به علم النفس الأدبي، حيث يدرس العلاقة بين النصوص الأدبية والنفس البشرية .

وبناءً على هذه المفاهيم للاغتراب النفسي نرى أنه يظهر جلياً في المقامات العباسية من خلال شخصية البطل المغترب ، الذي يجوب في الأمصار متنقلاً بين المدن، ومتقمصاً أدواراً مختلفة في محاولة للبحث عن الرزق أو الحكمة أو التجربة، وتجسد هذه الرحلات الاغتراب النفسي بمعانيه المتعددة ، سواء من حيث الانفصال عن الجذور الاجتماعية، أو الشعور بالضياع وسط التحولات الفكرية والاقتصادية في العصر العباسي .

الاغتراب عن الذات الأصيلة

في العصر العباسي، عانى الكثير من الأدباء والشعراء من الاغتراب عن الذات ؛ بسبب التناقض بين قناعاتهم الشخصية والواقع الذي عاشوا فيه ، فقد وجدوا انفسهم في بيئة سياسية مضطربة مليئة بالمؤامرات والفساد، فضلا عن ذلك أن القيم الأخلاقية والاجتماعية كانت تتغير بسرعة ، مما جعلهم يشعرون بأنهم لا ينتمون لهذا العالم .

هذا الصراع الداخلي جعلهم في حالة من التمزق النفسي ، فهم من جهة يسعون لتحقيق طموحاتهم وأفكارهم، ومن جهة أخرى يصطدمون بواقع لا يعترف بهذه القيم ، ولذلك يرى فروم أن التطور الذي شهده الإنسان والتقدم الحاصل خلق لديه أزمة هوية ، أزمة بينه وبين ذاته ، فقد أصبح أكثر اغتراباً وتشيؤ أو فقد هويته الحقيقية نتيجة لتراجع الوعي أمام هيمنة النزعة الاستهلاكية (بن اسباع ، خالف ، 2023 : 89) ، والمغترب عند فروم لا يعيش حياته كشخص مسؤول عن قدراته وثروته النفسية ، بل يشعر دائماً بنقصان داخلي، فهو لا يكتشف بنفسه ، بل يعتمد على قوى خارجة عنه ، مما يجعله خاضعاً لاختراعاته وإبداعاته بدلاً من أن يكون متحكماً فيها ، يعيش بعيداً عن ذاته ، فاقداً الإحساس بكرامته، حتى يكاد يفقد الشعور بوجوده الحقيقي (دمنهوري ، 1417هـ : 9) .

كما يرى فروم أن الذات الأصيلة هي ((الذات الفريدة غير القابلة للتكرار، والتي يتسم صاحبها بأنه شخص مفكر ، قادر على الحب والإحساس ، ومبدع لما يقوم به من أفعال)) (حماد، 2005 : 116)، ثم يميز فروم بين الذات الأصيلة والذات الزائفة ، ويرى أن الذات الزائفة هي الذات التي تفتقر لصفات الذات الأصيلة ، أو لأحد هذه الصفات ، إذ من الواضح وجود علاقة وثيقة بين التفرد والحب والنشاط الخلاق ، لذلك فإن فقدان أحد هذه الصفات غالباً ما يؤدي إلى إحلال ذات زائفة محل الذات الأصيلة، فهو يصف الإنسان الذي فقد تفرده، وباع نفسه للحشد، وأصبح رأساً في القطيع بقوله : إنه يعاش كالآخرين، كما تعاش الأشياء، فهو يعاش بالحواس وبالحس المشترك (حماد، 2005 : 119 - 120) ، يبدو أن فروم يشير إلى أن الشخص الذي يوصف بهذه العبارة لم يعد (يعيش) بوعيه الخاص، بل (يُعاش) بطريقة نمطية ، متأثراً بالتيار العام دون مقاومة أو تفكير نقدي ، وهذا يعكس فقدان الذات وتحوله إلى كائن سلبي يتبع الجماعة بدلاً من أن يقود نفسه وفقاً لقيمه وقناعاته الخاصة .

وفي هذا السياق، نجد أن شخصية البطل المغترب في المقامات العباسية ولاسيما مقامات الهمذاني والحريري تمثل نموذجاً للإنسان الذي فقد هويته المستقلة، واضطر إلى التكيف مع المجتمع بأساليب مختلفة، فنرى بطل مقامات الهمذاني (أبو الفتح الاسكندري) في **المقامة المكفوفية** عندما سأله الراوي (عيسى بن هشام) بعد أن عِلم انه (مُتعام)أي يتظاهر بأنه أعمى للحصول على المال من الناس ، قال : ((**فلمَّا نظمتْنا خلوةٌ مددتُ يُمناي إلى يُسرى عَضديهِ وقلت : والله لتُريِنّي سِرَّك ، أو لأكْشِفنَّ سِترك ، ففتح عن توأمتي لوزٍ وحدرتُ لثامه عن وجهه فإذا والله شيخنا أبو الفتح الإسكندري، فقلت : أنت أبو الفتح ؟ فقال : لا .**

أنا أبو قلَمُــون　　　في كلّ لونٍ أكون

اِخترْ من الكسْب دُوناً　　　فإنَّ دهْركَ دونُ

زجّ الزَّمان بِحُمقٍ　　　إنَّ الزَّمان زبُونُ

لا تُكْذَبِنَّ بعقْلٍ　　　ما العقلُ إلا الجُنُونُ)) (الهمذاني ، 2005 : 96) .

يواجه الراوي صدمة عند اكتشاف حقيقة أبي الفتح الإسكندري ، ويواجه أيضاً إنكاراً لهويته، وهذا الرفض لهويته يعكس حالة اضطراب الهوية ، وهو مفهوم نفسي يشير إلى فقدان الشخص لاتساقه الداخلي، واختلال ميزانه ، وبدلاً من أن يوجّه جهوده نحو حل المشكلة، يلجأ إلى أساليب ملتوية أو متطرفة يظنّ أنها ستنقذه مما يعانيه من توتر وتأزم نفسي ، كأن ينتحل أعذاراً لعيوبه وأخطائه (راجح، 1999 : 550) ، فالبطل يعاني من عدم ثبات الهوية؛ بسبب تقلبات المجتمع وضغوطه، وهو ما يتجلى في استخدامه لصورة (**أبو قلمون**) ، وهي كناية عن الشخص الذي يغير لونه بحسب الظروف، وقد أشارت الكثير من المعاجم بأن أبا قلمون يعني ((الحرباء؛ التي يضرب بها المثل في تغير ألوانها ... وعند الثعالبي : أبو قلمون في الثياب كأبي براقش في الطير، فإن أبا قلمون يتلون وأبا براقش يخيل)) (إبراهيم، 2002م : 27) ، وهذا يدل على حالة التكيف القسري مع بيئة لا تعترف بالثبات في القيم أو المبادئ، بل تفرض على الأفراد التلون والتغير لضمان البقاء ، إذ نلمح دعوة للانتهازية في قوله : (اختر من الكسب دونا فإن دهرك دون)، حيث يفرض المجتمع على الفرد أن يبحث عن المكاسب بأي وسيلة ، وليس وفق مبادئ ثابتة ، وهذا مما يجعل الإنسان يشعر بالغربة ؛ لأنه مضطر لاتباع قوانين لا تتماشى مع جوهره الأخلاقي .

وكما يظهر شعور البطل بالعجز من خلال عبارة (إن الزمان زبون) فهي توحي بأن الحياة أشبه بسوق غير متكافئ، فضلاً عن أنها تعكس شعوراً بأن الزمن قوة قاهرة تدفع الأفراد إلى فقدان ذواتهم ، حيث لا يستطيع الإنسان فرض هويته الحقيقية بل يُجبر على مسايرة الظروف . ولذلك فقد البطل ثقته في قدرته على الفهم من خلال قوله : (لا تكذبن بعقلٍ ، ما العقل إلا جنون) فهو هنا يصل إلى نقطة التشكيك في العقل نفسه، وهو ما يعكس اضطراباً عميقاً في الوعي الذاتي .

وفي بعض الأحيان يتصرف أبو الفتح الاسكندري بطريقة لا تعكس قناعاته الشخصية ، بل يبالغ في إرضاء الآخرين حتى لو كان ذلك على حساب كرامته، أو راحته النفسية ويتضح هذا لنا في **المقامة القِرْدية**، إذ يقول عيسى بن هشام : **((... إذ انتهيتُ إلى حلقة رجالٍ مُزدحمين يلوي الطَّرب أعناقهم ، ويشقُّ الضَّحكُ أشداقُهمْ، فساقني الحرص إلى ما ساقهم، حتى وقفتُ بمسمعِ صوتِ رجلٍ دون مرأى وجههِ لِشدَّةِ الهجمةِ ، وفرط الزَّحْمةِ ، فإذا هو قرَّاد يُرْقِصُ قِردَهُ ، ويُضْحِكُ من عندهُ ، فرقَصتُ رقْصَ المُحرَّج، وسِرْتُ سيرَ الأعرجِ ، فوق رِقاب الناسِ يلفظُني عاتقُ هذا لِسُرَّةِ ذاكَ ، حتى افترشْتُ لِحْيةَ رجُلين ، وقعدتُ بَعدَ الأيْنِ ، وقد أشْرقَني الخَجلُ بِريقهِ، وأرهقَني المكان بِضيقهِ ، فلما فرغَ القَرَّاد من شُغلهِ وانتفض المجلس عن أهلهِ ، قُمتُ وقد كسَاني الدَّهشُ حُلَّتهُ ، ووقفتُ لِأرى صُورتَهُ ، فإذا هو واللهِ أبو الفتح الإسكندري، فقلتُ ما هذهِ الدَّناءةُ ويحك ! فأنشأ يقول :**

الذَّنْبُ لِلأيــام لا لِي   فاعْتَبْ على صَرْفِ اللَّيالي

بِالحُمْقِ أُدرَكْتُ المُنى   ورفَلْتُ في حُـلَلِ الجَمـــالِ)) (الهمذاني ، 2005 : 113 - 114) .

يُظهر في هذه المقامة صراع نفسي عميق يعكس أزمة الهوية والاغتراب عن الذات الأصيلة ، فالراوي (عيسى بن هشام) يجد نفسه مدفوعاً بدافع الفضول والانجذاب إلى مشهد صاخب ، لكنه عندما يقترب ، يكتشف أن ما كان يظنه حدثاً ذا قيمة ليس إلا استعراضاً هزلياً يقدمه شخص يعرفه جيداً ـ أبو الفتح الإسكندري ـ وهنا تحدث الصدمة النفسية التي تؤدي إلى شعور بالدهشة والخذلان، ويشعر أن الواقع قد خالف توقعاته ، بحدوث الانفصال بين الصورة المثالية التي كان يحملها عن أبي الفتح وبين الواقع المهين الذي وجده عليه . فيصف الراوي نفسه في حالة جسدية محرجة (رقصت رقص المحرج، سرت سير الأعرج، افترشت لحية رجلين)، وهذا يرمز إلى انعدام سيطرته على موقفه، وهذه الصورة تعكس اغترابه التام ، لكن أبا الفتح هو الشخصية الأكثر وضوحاً في تعبيرها عن الاغتراب؛ لأنه كان يوماً ما شخصاً ذا قيمة فكرية أو أدبية، لكنه اضطر إلى التنكر لهذه الهوية من أجل البقاء .

يبرر أبو الفتح تحوله إلى مهرج بأنه ضحية للظروف (الذنب للأيام لا لي ...)، وهذا يعبّر عن انفصاله الداخلي عن ذاته الحقيقية ، فهو لا يزال يدرك قيمته القديمة ، لكنه اضطر إلى تبني دور جديد لا يعكس شخصيته الأصلية ، فأصبح ((كأنه أداة يحركها المجتمع كيف يشاء، وأنه يحيا على نحو لا إنساني ، فالقيم والكائنات الإنسانية تتحول إلى أشياء أو سلع قابلة للبيع في سوق الحياة)) (العنزي، 1423هـ : 14) ، وفضلا عن ذلك نراه يعترف بأنه حقق النجاح، لكن بطريقة غير مشرفة ، مما يجعله يشعر بانفصام بين ذاته الأصلية وواقعه المفروض عليه . ولذلك ((إن المغترب ينظر إلى العالم وإلى نفسه على أنه [سلعة] يمكن بيعها وشراؤها، وليس لها إلا قيماً مالية فلم يعد نجاح الفرد رهيناً بقيمته الذاتية ، بل أصبح نجاحه رهيناً بمدى نجاحه في بيع شخصيته في سوق المعاملات الاجتماعية)) (دمنهوري ، 1417هـ : 9) .

وعليه فأن هذه المقامة تُرسم لنا مشهداً حيث الجميع يضحكون ويندمجون في الحدث ، ما عدا الراوي (عيسى بن هشام) ، الذي يشعر بالاغتراب النفسي عنهم ؛ لأنه ليس فرداً من هذه الجماعة ، بل هو شخص يحاول فهم ما يحدث ، والحشد المزدحم يرمز إلى المجتمع الذي قد ينجرف وراء التسلية الفارغة دون إدراك عميق .

أشرنا سابقاً أنه في العصر العباسي اشتد الفقر وفسدت الأخلاق؛ بسبب الظروف الاقتصادية والسياسية، فظهر نوع من الشعراء كانوا يهجون الآخرين مقابل المال، وأن من يدفع المال للهجاء هو نفسه من يطلب الإساءة للآخرين، وهذا مما يعكس حالة من الاغتراب عن الذات ، ولقد وجدنا هذا الأمر لا يختلف عنه في النثر ، بل كان أشد قسوة وإيلاماً، لأنه تسلل إلى العقول دون زخرفة القوافي ، وصار الهجاء أكثر وضوحاً ، وأكثر وحشية ، كأنه طعن مباشر لا يخففه إيقاع الشعر ، ويتجلى ذلك في **المقامة الدِّيناريَّة** التي نرى فيها الراوي عيسى بن هشام يتحدث قائلاً : **"اتَّفَـقَ لِـي نَـذْرٌ نَذرتهُ فـي دِينـارٍ أتصدَّقُ بـهِ علـى أشْحَذ رَجُلٍ ببغداد، وسألتُ عنـه فدُللت علـى أبي الفتـح الإسكنـدري، فمضيتُ إليـه، لأتصدَّق عليـه، فوجدتـه فـي رُفقةٍ قد اجتمعت عليـه في حلقةٍ فقلتُ : يا بنـي ساسـان أيُّكم أعرف بِسلعتـهِ، وأشحذ فـي صنعتـهِ، فأعطِيـهِ هذا الدينار ؟ فقال الإسكندري : أنا ، قال آخر من الجماعة : لا بل أنا ، ثم تناقشا وتهارشا حتى قلتُ : لِيشتُم كُلٌّ منكما صاحبهُ ، فمـن غلـبَ سلبَ ، ومـن عزَّ بزَّ "** (الهمذاني، 2005 : 246) .

يظهر الاغتراب عن الذات في هذه المقامة من خلال تصوير الهمذاني للمتسولين/ الشحاذين الذين لا يمارسون التسوّل بدافع الحاجة الحقيقية فقط ، بل حولوه إلى حرفة لها قوانينها وأساليبها (عبد المنعم، 2022م : 78)، وقد تتضمن هذه الحرفة أساليب فكهة في ظاهرها، يراد بها الوصول إلى غاياتهم، لكنهم كانوا في قرارة أنفسهم يمقتون الأغنياء وينفرون من الحكام والأمراء المترفين (رياض ، 1998 : 323)، فلم يعد التسوّل مجرد طلب للمساعدة ، بل أصبح تمثيلاً مصطنعاً ، مما يعكس فقدان الإنسان لذاته الحقيقية ؛ بسبب الظروف المجتمعية، و((الفساد الاقتصادي [الذي] كان ثقيل الوطأة على عاتق الطبقات الشعبية)) (الحسين، 1995 : 37) ، ولذلك اعتمد الهمذاني في مقامته هذه على أسلوب السخرية اللاذعة ؛ لأن واقع المجتمع العباسي كان يعجّ بهؤلاء المتسولين والبطّالين الذين اتخذوا التسول مهنة، فنراه لا يقدم مشهداً اعتيادياً للتسوّل ، بل يصوره وكأنه مبارزة بين محترفين، بحيث يتبارى المتسولون لإثبات من هو الأجدر بالعطاء . يبدأ الاسكندري ساخراً من رفيقه بقوله : **"يا برْدَ العجوز، ويا كُربةَ تمُّوز ، يا وسخَ الكُوز ، يا دِرهماً لا يجُوز ، يا حديث المُغنّين ، يا سَنةَ البُوسِ ، يا كوكبَ النُّحُوس ، يا وطْءَ الكَابُوس ، يا تُخْمةَ الرُّوُوسِ ، يا أُمَّ حُبَيْنٍ ، يا غَداةَ البَيْنِ ، يا فراقِ المُحِبِّين، يا ساعة الحين، يا مَقْتَل الحُسين ، يا ثِقَلَ الدَّيْن ، يا سمة الشَّيْنِ ، يا بريدَ الشُّومِ، يا طريد اللُّومِ، يا ثريدَ الثُّوم ، يا بادية الزَّقُّومِ ، يا منْعَ الماعونِ، يا سَنةَ الطَّاعونِ، يا بَغْيَ العَبيدِ ، يا آيةَ الوعِيد ، يا كلام المُعيدِ ، يا أقْبحَ من حتَّى في مَواضِعِ شتَّى ، يا دُودةَ الكَنيفِ ، يا فَرْوةً في المصيفِ، يا تَنَحْنُحَ المُضِيفِ إذا كُسِرَ الرَّغيفُ ، يا جُشاءَ المَخْمورِ، يا نكْهةَ الصُّقُور ، يا وتِدَ الدُّورِ ، يا خُذْروفةَ القُدُور ، يا أرْبُعاءَ لا تدورُ، يا طَمعَ المقْمُور ، يا ضَجرَ اللِّسانِ ، يا بَوْلَ الخِصْيانِ ، يا مُوَاكَلةَ العِمْيانِ، يَا شفاعةَ العُريانِ يَا سَبْت الصِّبْيانِ ، يا كِتابَ التَّعازي ، يا قَرارةَ المخَازِي ، يَا بُخْلَ الأهْوازِي ، يا فضُولَ الرَّازِيّ، واللهِ لو وضَعْتَ إحْدَى رِجْلَيكَ على أرْونْد ، والأُخْرى على دُماوَنْد، وأخَذْتَ بيدِكَ قَوْسَ قُزَحَ ونَدَفْتَ الغَيْم في جِبَابِ المَلائِكَةِ ، ما كُنْتَ إلا حَلَّاجاً "** (الهمذاني، 2005 : 246 - 250) .

ثم يجيبه الآخر بأسلوب مماثل وطريقة لا تخلو من السخرية والتهكم ، مستخدماً كلمات لا تقل حدّة عمّا قاله أبو الفتح الاسكندري : **"يا قَرَّادِ القُرودِ ، يا لَبُودَ اليَهُودِ ، يا نَكْهةَ الأسُودِ ، يا عَدَماً في وجُودِ ، يا كَلْباً في الهِراشِ ،يا قِرْداً في الفِراشِ ، يا قَرْعِيَّة بِماشٍ، يا أقَلَّ من لاشٍ ، يا دُخانَ النَّفطِ ، يا صَنَانَ الإبطِ ، يازَوَالَ المُلْكِ، يا هِلالَ الهُلْكِ ، يا أخْبَث مِمَّن باءَ بِذُلِّ**

الطَّلَاقِ ، ومَنْعِ الصَّدَاقِ ، يا وَحْلَ الطَّرِيقِ ، يا مَاءً على الرِّيقِ ، يا مُحَرِّكَ العَظْمِ ، يا مُعَجِّلَ الهَضْمِ ، يا قَلَحَ الأَسْنَانِ ، يا وسَخَ الآذان، يا أَجَرَّ من قَلْسٍ، يا أَقَلَّ من فَلْسٍ، يا أَفْضَحَ من عَبْرةٍ، يا أبْغى من إبِرَةٍ ، يا مَهَبَّ الخُفِّ ، يا مَدْرجَةَ الأكُفِّ ، يا كلمةَ لَيْتَ ، يا وكَفَ البَيْتِ ، يا كَيْت وكَيْتَ ، والله لو وضَعْتَ اسْتَكَ على النُّجُومِ، ودَلَّيْتَ رِجْلَكَ في التُّخُومِ ، واتَّخَذْتَ الشِّعْرَى خُفًّا ، والثُّرَيَّا رَفًّا ، وجعَلْتَ السَّماءِ مِنْوالاً ، وحِكْتَ الهَواءَ سِرْبالاً ، فسَدَّيْتَهُ بِالنِّسرِ الطَّائر ، وألْحَمْتَهُ بِالفَلَكَ الدَّائرِ ، مَا كُنتَ إلا حَائِكاً . قال عيسى بن هشام : فَواللهِ مَا عَلِمْتُ أيُّ الرَّجُلَيْنِ أُوْثِرُ وما مِنْهما إلا بَدِيعُ الكلامِ ، عجِيبُ المَقامِ ، ألدُّ الخِصَامِ ، فَتَرَكْتُهما ، والدِّينارُ مُشَاعٌ بَينَهُما ، وانْصَرفْتُ ومَا أَدْرِي ما صَنَعَ الدَّهْرُ بِهِمَا " (الهمذاني، 2005 : 250 - 251) .

تُقدم هذه المقامة صورة دقيقة عن البنية الاجتماعية في بغداد خلال العصر العباسي ، حيث يظهر السرد تناقضات المجتمع بين الطبقات ، ولذلك مزج الهمذاني بين السخرية والفكاهة للإشارة إلى المعاناة والمشاكل التي يواجهها أفراد الطبقة الفقيرة في المجتمع ، فقد اختار شخصية من الطبقة الدنيا؛ ليجسد من خلال أساليبه في كسب الرزق ملامح الحياة السائدة في عصره، سواء مما عاشه بنفسه أو ما كان يدور من حوله (لرقم ، 2019م : 485) ، فجعل الهمذاني راويته عيسى بن هشام ينتمي إلى طبقة عليا قادرة على التصدق بدينار ، والبطل / أبو الفتح ورفاقه ينتمون إلى طبقة الفقراء الذين حولوا التسول إلى فن تنافسي ، وهذا بالتالي يعكس فجوة اقتصادية حادة ، فضلاً عن ذلك يُبرز النص طبقة مهمشة من المجتمع ، تُعرف بـ (بني ساسان)، الذين يرمزون إلى الفقراء والمتسولين ، ويذكر يوسف نور عوض ((إن ظروف الفقر [في البيئة العباسية] التي عانت منها قطاعات كبيرة من الناس أدت إلى ظهور طبقة من المكدين والمتسولين، غير أن جماعة بعينها تميزت من بين هؤلاء لِمَا اتسمت به من الذكاء والتوسع في الحيلة ، وقد أفاد بديع الزمان منها كثيراً في صوغ الأبعاد الفنية لبطله أبي الفتح الاسكندري الذي لا يكاد يخطئ أحد في أنه واحد من تلك الجماعة ... "طائفة الساسانين")) (عوض، 1979 : 80) ، حيث اتخذت المنافسة بينهم طابعاً بلاغياً بدلاً من القوة الجسدية أو الحرفية ، مما يدل على سيادة الخطابة والتلاعب بالكلمات كوسيلة للعيش، فأبو الفتح الاسكندري يجسد نموذج المثقف المغترب الذي يُجبر على التنافس بأساليب غير شريفة ، حيث يدخل في سباب وشتم لا يليق بمكانته البلاغية ، مما يدل على انفصاله عن القيم الأخلاقية العليا ، إنه يدرك أن مستواه يتراجع، لكنه مضطر أن يستمر في هذا الدور كي يحصل على الدينار . فمن الأسباب التي تحثّ الأديب إلى انتهاج هذا الفن هو الشعور بالحرمان أو التقصير، أو ناتجاً عن التنافس والأضغان، أو قد يكون مصدره السخرية والطيش (الحسين ، 1995 : 118) .

فلم يتمكن الكثير من الفقراء في العصر العباسي من إيجاد ما يسدّ حاجتهم ، فاضطرّوا إلى سلوك سبيل الاستجداء واصطناع السؤال للحصول على القوت ، ويعود ذلك إلى أن الناس لا يجنحون كثيراً إلى التصدّق على الفقراء عبر الأساليب التقليدية ، التي غالباً ما تكون ثقيلة الوقع على النفوس (مرتاض، 1988 : 29) ، وعليه أن هذه المنافسة التي وقعت بين أبي الفتح والمتسول الآخر ليست مجرد نزاع شخصي، بل هي انعكاس لصراع أكبر بين المهمشين الذين يتنافسون على موارد محدودة ، وهذا الصراع ، رغم أنه يبدو مسلياً بسبب زخرفته اللغوية ، لكنه يعكس مأساة اجتماعية كان يمر بها المجتمع العباسي .

ولعل الاغتراب التام يكمن في النهاية، إذ نلاحظ أن عيسى بن هشام يتخلى عن فكرة اختيار الفائز ويترك الدينار بينهما ، مما يعكس لا مبالاته تجاههما ، وهو ما يرمز إلى نظرة المجتمع للنخبة المهمشة ، حيث يصبح وجودهم أو غيابهم غير ذي تأثير ، وهذا يعزز شعور أبي الفتح بالاغتراب ، فهو لا يكافأ على براعته ، بل يبقى مجرد فرد في جماعة منبوذة .

يتضح لنا مما تقدم إن المقامة الدينارية ليست مجرد قصة طريفة عن متسولين يتنافسون ببلاغتهم ، بل هي نقد اجتماعي عميق لمجتمع يعاني من انحطاط قيمي واقتصادي ، فهي جسدت لنا كيف يمكن للمهارات الرفيعة أن تُهدر في بيئة لا تدعم الإبداع الحقيقي ، مما يجعل الأفراد مغتربين عن ذواتهم، محاصرين في أدوار لا تعكس قدراتهم الحقيقية .

فعندما يصبح المال هو معيار البقاء والمكسب ، قد يضطر الإنسان إلى التخلي عن قيمته الحقيقية، فيتحول إلى شخص قاسٍ يُهين نفسه من أجل الحصول عليه ، وهذا ما لاحظناه في المقامة الدينارية للهمذاني التي طرحت صراع بين الشحاذين حول المال بوصفه دافعاً لإهدار الكرامة في النزاع والإهانة ، إذ ((انصرفت فئات اجتماعية كثيرة إلى امتهان الكدية والاستجداء ، لأنها أصبحت خاوية الوفاض ، لا تملك ما يسد الرمق، وصار همّ الفرد أن يجد ما يتقّوت به مهما كان مصدره)) (الحسين، 1995 : 32 - 33) ، وعلى غرار هذه المقامة تأتي المقامة الدينارية للحريري لتكشف لنا عن تطور أكثر دهاءً في العلاقة بين الإنسان والمال ، فيتحول الإنسان إلى شخص متصنّع ، يختار كلماته وفق مصلحته ، فتضيع هويته الحقيقية بين الحاجة والتملق، فالمال في مقامة الحريري يخلق نموذجاً أكثر تعقيداً للاغتراب ، إذ يتحول الإنسان/ البطل أبو زيد السروجي إلى ممثل بارع يعيد تشكيل خطابه وفق ما يحقق له المكسب، مما يعكس فقداناً تدريجياً للذات الحقيقية لصالح الذات النفعية ، يروي الحارث بن همام عن شخصٍ في مشيته عرج ، قائلاً : **((''فأوَيْتُ لَمفاقِرِهِ ، ولَويْتُ إلى استنْباط فِقرِهِ ، فأبْرَزْتُ ديناراً ، وقُلتُ لَهُ اختِباراً : إنْ مدَحْتهُ نَظْماً ، فهو لكَ حتْماً ، فانْبَرى يُنشِدُ في الحالِ، من غير انتحال :**

أكْرِمْ بهِ أصفرَ راقتْ صفْرَتُـه ... جوّاب آفاق ترامَتْ سَفرتُهْ
مأثـورَةٌ سُمعَتُهُ وشُهـرَتُـهْ ... قد أودِعَتْ سِرّ الغِنَى أسرَّتُهْ
وقارَنتْ نُجحَ المَساعي خطرَتُه ... وحُبِّبَتْ إلى الأنـامِ غُـرّتُـهْ
كأنّمـــا مِنَ القلـوبِ نقْرَتُـه ... به يصولُ مَنْ حوتْهُ صُرّتُه
وإنْ تفانتْ أو توانتْ عِتْرتُـه ... يا حبّذا نُضارُهُ ونَضْـرَتُـه
ومُترَفٍ لولاهُ دمَتْ حسْرَتُـه ... وجيْشِ همٍّ هزَمَتْهُ كرّتُـه
وبـدرِ تمٍّ أنزَلتْهُ بدْرَتُـــه ... ومُستَشيطٍ تتلظّى جمْرتُـهْ
أسَرّ نجْواهُ فلانتْ شِرّتُـــهْ ... وكمْ أسـيرٍ أسْلَمَتْهُ أسرَتُـهْ
أنقَذَهُ حتّى صفَـتْ مسرّتُـهْ ... وحقِّ مولًى أبْـدعَتْهُ فِطرَتُـه

لولا التُّقَى لقُلتُ جلّتْ قُدرتُه

ثم بسط يَدهُ، بعدما أنْشدهُ، وقال : أنْجزَ حُرٌّ ما وعَدَ ، وسَحّ خالٌ إذا رعَدَ ، فنبذْتُ الدّينـار إليـه، وقلـتُ : خُـذْهُ غيـر مأسـوفٍ عليـه، فوضَعهُ فـي فيـهِ ، وقـال : بارِك اللهـمَّ فيـه ! ثمَّ شمّرَ للانثُـناء ، بعد تـوفِيـهِ الثّـنـاء)) (الحريري ، 2016م : 26 - 28) .

يعرض الحارث بن همام في هذه المقامة قدرته على التحكم بمصير الشاعر (الأعرج) / البطل أبو زيد السروجي ، ويختبر براعته الفنية بقصد تسلية نفسه، والشاعر بدوره يلبي الطلب بسرعة ويستخدم شعره لتمجيد المال (الدينار) ، الذي يتم تصويره كعنصر ذي قيمة عليا يحقق مكانة ووجاهة اجتماعية (سر الغنى) ، وهذه الرمزية تمثل رؤى المجتمع آنذاك حول المال حيث يراه الناس وسيلة للترقي الاجتماعي والتأثير ، فضلاً عن أن هذا الأمر يعكس أزمة القيم والمكانة الاجتماعية في مجتمع يقدر المال أكثر من الموهبة الحقيقية ، لذلك نرى أن بعض الدراسات تشير إلى أن ((المال ليس فقط مجرد ظاهرة اقتصادية، بل هو أيضا ظاهرة نفسية تؤثر في شخصية الإنسان ، وهو مصدر من مصادر القوة والهيبة والسيطرة والشعور بالسعادة أو القلق والألم والخوف)) (الباهلي ، 2008)، فالبطل أبو زيد السروجي يُضطر إلى استغلال مهاراته البلاغية ليس لنشر الحكمة أو الاخلاق ، بل لكسب المال، وهذا مما يجعله في حالة انفصال عن ذاته الحقيقية كشاعر .

وعندما ألقى البطل الأبيات ألقاها فوراً من غير انتحال ، لم يحتج إلى التفكير العميق في المدح ، وهذا مما يشير إلى أن هذه المدائح أصبحت مجرد مهارة يكررها آلياً ، بلا إحساس حقيقي ، والدليل على ذلك أن الحارث بن همام حين طلب من البطل / أبو زيد السروجي أن يذم الدينار بقصيدة أخرى قائلاً : ((**"فجرّدتُ ديناراً آخر وقلتُ لهُ : هلْ لَكَ في أنْ تذُمّهُ، ثم تضُمّهُ ؟ فأنشدَ مُرتجلاً ، وشدا عجلاً :**

تبّاً لَهُ من خـــادعٍ مُماذِقِ   أصفرَ ذي وجْهَيْن كالمُنافِـقِ
يبـدو بوصْفَيْن لِعينِ الرّامقِ   زينَةِ معْشُـوقٍ ولـوْنِ عاشِقِ
وحُبّهُ عنـدَ ذوي الحقـــائقِ   يدْعـو إلى ارتِكـابِ سُخْطِ الخالقِ
لوْلاهُ لمْ تُقطعْ يمينُ ســارِقِ   ولا بدَتْ مظْلَمَـةٌ مـن فاسِـقِ
ولا اشْمأزّ باخِلٌ منْ طـــارِقِ   ولا شكـا الممطُولُ مطْلَ العـــائقِ
ولا استُعيذَ من حَسـودٍ راشِقِ   وشـرّ مَا فيه مـن الخلائـــقِ
أنْ ليسَ يُغْني عنْكَ في المَضايقِ   إلا إذا فــــرّ فِــــرار الآبِــــقِ
واهاً لمنْ يقْذِفُهُ منْ حــــالِقِ   ومـنْ إذا ناجـاهُ نجْـوى الوامِـقِ
قال لهُ قوْلَ المُحقّ الصّـــادقِ   لا رأيَ في وصـلِكَ لي ففـارِقِ ")) (الحريري، 2016 : 28 - 29) .

في هذا المقطع ، يتجلى التناقض في شخصية البطل بشكل أكثر وضوحاً ، ويظهر اغتراب البطل بشكل صارخ في قدرته على قول الشيء وعكسه دون أن يبدو عليه أي تردد، فهذه القدرة لا تدل فقط على موهبته الشعرية ، بل تكشف عن فقدان أي موقف شخصي حقيقي، فهو لا يرى في الشعر إلا وسيلة للعيش ، وهذا النوع من التلون الخطابي يعكس بيئة اجتماعية لا تقدر الحقيقة بقدر ما تقدر المهارة في الإقناع والتلاعب .

وعليه فالراوي الحارث بن همام الذي يمثل دور (المتحكم) في المقامة ، يجسد سلطة المال، فهو الذي يحدد موضوع الخطاب (مدحاً أو ذماً) وفقاً لرغباته؛ لأن ((بعض الناس ينظرون للمال كمصدر قوة لهم)) (الباهلي ، 2008) ، بينما الشخص الأعرج/ البطل يُنفّذ دون اعتراض ، والمجتمع الذي ترسمه المقامة هو مجتمع مزدوج القيم ، إذ أنه يحتفي بالكلام البليغ لكنه لا يعترف بقيمته إلا إن كان مدفوع الأجر، وهذا ما جعل بعض الاشخاص يضعون قدراتهم الذهنية موضع الاستغلال بهدف الحصول على أكبر قدر ممكن من المال (الباهلي ، 2008) ، وهو ما جعل المعرفة والثقافة مجرد سلع قابلة للبيع والشراء ، ولاشك أن العباسيين في ذلك الوقت قد استفادوا من القدرات الثقافية والعلمية والفنية لدى العناصر العربية وغير العربية التي كانت تشعر بحاجتها الشديدة إلى التعاون مع الخلفاء حتى تكسب مزيداً من التقدير المادي والاجتماعي التي كانت تفتقر إليها، وقد أدى ذلك إلى تحول عدد كبير من الأدباء والشعراء إلى مستجدين في قصور الخلفاء (عوض، 1979 : 23) .
فالمال لا يُقدم فقط كشيء إيجابي أو سلبي، بل يُظهر ازدواجية معقدة ، ففي قصيدة المدح ، المال هو مصدر النفوذ، وهو القوة التي تجلب الاحترام والتقدير ،وهو الذي (**يصولُ من حوتْهُ صُرتّهُ**) ، أما في قصيدة الذم ، يصبح المال أصل الفساد، فهو السبب في قطع يد السارق ، وهو الذي يجعل البخيل يزداد بخلاً ، وهو الذي يقود الناس إلى المظالم والخيانات .

وعندما يقبل البطل الدينار الثاني بعد أن أتمّ مهمته في الذم ، قال له الحارث بن همام : **((عوذّهما بالمثاني ، فألقاه في فمِهِ، وقرنهُ في توأمِهِ ، وأنْكفأ يحمدَهُ مغداهُ ، ويمدح النّادي ونَداهُ))** (الحريري، 2016 : 29)، يطلب منه أن (يعوّذهما بالمثاني) ، أي يحصّنهما بآيات قرآنية ، ففي هذه اللحظة لم يعد المال وسيلة للنجاة فقط ، بل صار شيئاً مقدساً يُطلب تحصينه بالدين ، مما يعكس ازدواجية المجتمع بين المادية والتديّن الشكلي، وهنا يظهر البطل كشخص مغترب عن جوهر الموهبة الأدبية، ((إنه يفقد معظم شعوره بالنفس، وبنفسه كذات متفردة لا يمكن تكرارها)) (حسن حماد ، 2005 : 120)، لذلك لم تعد كلماته ملكه، بل هي بضاعة تُباع لمن يدفع أكثر . ومن هنا يتبين لنا ((أن الإنسان لا يعيش نفسه على أنه الحامل الفعال لقواه وثرائه ، بل كشيء مفتقر معتمد على قوى خارج نفسه فيها أسقط جوهره الحي)) (حماد، 2005 : 129) .

وعندما شك الحارث بن همام في تعارج الشخص / البطل (أبو زيد السروجي)، قال : **" فناجاني قلبي بأنّهُ أبو زيدٍ ، وأنّ تعارُجهُ لكيدٍ ، فاستعدْتُهُ ، وقلتُ له : قد عُرِفْتَ بوشْيِكَ ، فاستقم في مشْيِكَ ، فقال : إنْ كنتَ ابن همّامٍ ، فحُيّيتَ بإكرامٍ وحييتَ بين كِرامٍ ! فقلتُ : أنا الحارثُ، فكيف حالك والحوادثُ ؟ فقال : أتقلّبُ في الحالين بؤسٍ ورخَاءٍ ، وأنقَلِبُ مع الرّيحينِ زعْزَعٍ ورخاءٍ ، فقلتُ : كيفَ ادّعيتَ القَزَلَ ؟ وما مِثْلُكَ من هزَلَ ، فاستسرّ بِشْرُهُ الذِي كان تجلّى ، ثُمَّ أنشدَ حينَ ولّى :**

تعارجْتُ لا رغبَةً في العرَج   ولكن لأقْرعَ بابَ الفـــــرجْ

وأُلْقي حبْلي علَى غـــاربي   وأسلُكُ مسْلَكَ مَن قد مرجْ

فإنْ لامني القومُ قلتُ اعذروا   فليسَ على أعْرجٍ من حرَجْ " (الحريري ، 2016م : 29 - 30) .

وفي هذا المقطع الأخير يشك الراوي في هوية الشخص الأعرج/ البطل، فإن ذلك يعكس فكرة التخفي والتمويه، وهي جزء من الاغتراب ، فالبطل لا يعيش بوجه واحد ، بل يتنكر ويغيّر حالته حسب الموقف ، مما يجعله كائناً متحولاً اجتماعياً، لا ينتمي إلى مكان أو طبقة محددة . فيكشف الراوي الحارث بن همَّام عن إدراكه بأن هذا الرجل ليس مجرد شاعر متسول، بل هو أبو زيد السروجي ، وعندما سأله عن حاله ، نرى البطل يصف حاله بقوله : "أتقلّب في الحالين بوس ورخـاء ، وأنقلب مع الريحين زعزع ورخـاء"، فهذه الجملة تكشف عن حالة التشرد الاجتماعي والمادي التي يعانيها ، فهو لا يعيش استقرار، بل يتأرجح بين فترات من الازدهار وأخرى من الفقر المدقع ، وهذه الحالة ترمز إلى وضع المثقفين والشعراء في المجتمع العباسي ، حيث يكرمون أحياناً ، ويهملون أحياناً أخرى ، فالمجتمع العباسي ((على الرغم من ثراء ارستوقراطيته تحول كثير من رجال الفن والأدب فيه إلى مكدين أمام اعتاب البلاط ، وأما الذين كانوا يفيدون فهم الذين اتخذوا من الجدل والسفسطة والصراع الطائفي والحزبي والعنصري وسائل من وسائل الالهاء للناس، وكان عطاؤهم بقدر ما الهوا به الناس من التفكير في مساوئ الإدارة والحكم)) (عوض ، 1979 : 16) ، ولذلك نجد البطل لا يمتلك قدرة حقيقية على التحكم في مصيره، فهو يعيش وفق تقلبات الظروف مثلما تتحرك الرياح، مما يعكس افتقاده للسيطرة على ذاته وحياته .

وعندما يسأله عن سبب تعرّجه ، يردّ عليه البطل : (تعـارجت لا رغبـه فــي العـرج ولكـن لأقـرع بـاب الفـرج) ، هذا البيت ذا بعد رمزي عميق ، يدل على أن البطل لا يتصرف بهذه الطريقة لأنه يريد ذلك ، بل لأنه مضطر للبحث عن الخلاص بأي وسيلة ، واعترافه بأنه (يلقي حبله على غاربه) ، أي أنه ترك نفسه للقدر دون توجيه حقيقي ، فهو لا يتحكم في مسيره، بل يسير وفق ما تفرضه عليه الحياة ، ولكن نجد هناك مفارقة في قوله : " فإن لامني القوم قلتُ : اعذروا فليس على أعرج من حرج" ، فهو هنا يصل إلى ذروة التبرير للاغتراب والضياع، فهو لا يعتبر نفسه مسؤولاً عن وضعه، بل يراه نتيجة حتمية لظروف أقوى منه ، وهذا يدل على عدم قدرة الفرد على السيطرة على مصيره في ظل ظروف غير عادلة .

ومن هنا يمكن القول : إن البطل فقد ارتباطه بذاته الأصيلة ؛ بسبب الظروف القاسية التي فرضها المجتمع في العصر العباسي، فهو لم يعد يملك هوية واضحة ، فهو ليس شاعراً صادقاً ، ولا محتالاً خالصاً ، بل كائن ممزق بين حاجته

للعيش وبين إحساسه العميق بالضياع، وعليه إن هذه المقامة تعكس روح العصر العباسي ، حيث كانت الطبقية واضحة ، والمال متحكماً ، والمثقفون في حالة صراع بين الموهبة والحاجة إلى العيش، مما أدى إلى انتشار التكسب الأدبي والخداع الاجتماعي للبقاء على قيد الحياة .

أما في المقامة الكرجية يظهر التناقض لدى البطل بين باطنه وظاهره ، حيث يقول :

يا قومِ لا يُنبئكمْ عن فقْري   أصْدقُ من عُريي أوانَ القرّ

فاعتبروا بما بَدا من ضُرّي   بـاطنَ حـالي وخفيَّ أمـرْي

وحاذروا انقلابَ سِلْمِ الدّهْرِ   فإنّنـي كُنتُ نبيـهَ القـدْرِ

آوي إلى وفْرٍ وحـدٍّ يفْـري   تُفيدُ صُفْـري وتُبيدُ سُمْـر

وتشتكي كُومي غَداةَ أقْري   فجرّدَ الدّهرُ سُيوفَ الغـدْرِ

وشنّ غارات الرّزايـا الغُبْر   ولـمْ يـزَلْ يسْحتُني ويبْـري

حتى عفَتْ داري وغاضَ دَرّي   وبارَ سعْري في الورَى وشِعْري

وصـرْتُ نضْـو فاقـةٍ وعُسْرِ   عاري المَطا مُجرّداً من قِشْري

كأنّنـي المِغزَلُ في التّعـرّي   لا دفْءَ لي في الصِّنِّ والصِّنّبْرِ

غيرُ التّضحّي واصطلاءِ الجمْرِ   فهـلْ خِضَـمٌ ذو رداءٍ غَمْـرِ

يسْتُرُني بمُطـرَفٍ أوْ طِمْـــرِ   طِلابَ وجْهِ اللهِ لا لِشُكْـرِي)) (الحريري، 2016م : 170 - 171)

يبدأ الشاعر/ البطل (أبو زيد السروجي) قصيدته بأن حالته الراهنة من الفقر لا تحتاج إلى دليل أكثر وضوحاً من عريه في زمن البرد ، فكان الشاعر / البطل ينعم بالوفرة والقوة، لكن الدهر انقلب عليه وسلبه كل شيء ، مما أدى إلى ضياع الذات، فصار يرى نفسه مجرد ظل لما كان عليه سابقاً ، وفضلاً عن ذلك يُظهر لنا فقدانه للكرامة والستر ، وهذا مما يجعله غريباً عن ذاته السابقة التي كانت تنعم بالغنى والجاه ، وفي البيت الثالث يؤكد هذا التحول قائلاً : (فإنني كنت نبيه القدر) ، أي أنه لم يكن شخصاً عادياً ، بل كان ذا شأن ومكانة عالية، وفي مقابل ذلك الماضي المشرق، نجد صورة معاكسة تماماً في الحاضر (وصرت نضو فاقة وعسر ، عاري المطا مجرداً من قشري) يصور البطل نفسه كجسد مجرد من كل ما يميزه ليس فقط المال والممتلكات، بل حتى من (قشره) ، أي من مظاهره الخارجية التي كانت تعطيه إحساساً بالوجود والهوية ، فاستخدامه ألفاظ (عاري المطا، ومجرداً من قشري) يعكس حالة الانسلاخ التام عن الذات ، وكأن الشاعر / البطل لم يعد يشعر بأنه هو نفسه .

ونراه يعمق الإحساس بالفقدان من خلال التشبيه في قوله : (كأنني المغزل في التعري لا دفء لي في الصنِّ والصّنّبر)، فالمغزل أداة بسيطة بلا قيمة في حد ذاتها ، وهو رمز لفقدان السيطرة والضعف ، كما أنه يشير إلى انفصاله التام عن بيئته ومجتمعه، حيث صار كائناً بلا غطاء ، بلا حماية ، مجرداً من كل ما يمنحه الدفء، سواء مادياً أو عاطفياً . فالبطل لا يجد من يقف بجانبه، ولا يجد حتى من يقدّر معاناته أو يعترف بها ، فيقول : (غير التضحي واصطلاء الجمر)، فلم يتبقَّ له سوى الألم والمعاناة ، دون أي دعم أو تضامن من المجتمع، وهذا يعزز إحساسه بالعزلة ، وفي نهاية القصيدة نراه يبحث عن

شخص كريم، حيث يقول : " فهل خضم ذو رداء غمر، يسترني بمطرف أو طمر"، حتى يمنحه ما يستره، ولو كان ذلك برداء بسيط ، ويؤكد أنه لا يريد إحساناً من أحد بدافع الشكر أو الانتظار منه لرد الجميل ، بل يطلب عطاءً خالصاً لله (طلاب وجه الله لا لشكري)، وهذا يعكس حالة نفسية مضطربة ، لأنه يدرك حاجته، ولكنه في الوقت نفسه يشعر بأن ذاته أصبحت موضع شفقة، مما يعمق اغترابه عن نفسه .

وإذا كان الاغتراب في الأبيات السابقة ينبع من الحاجة والاضطرار إلى الصبر، نجد أن أبا زيد السروجي في **المقامة الطَّيْبِيَّة** يعبر عن اغتراب من نوع آخر ، حيث يتقمص شخصيات متعددة ليلائم كل موقف، مما يجعله فاقداً لذاته الحقيقية وسط تغيراته المستمرة لإرضاء الآخرين ، حيث يقول :

لبسْتُ لكُــلِّ زمَانٍ لَبوسـاً   ولابسْتُ صَرْفيهِ نَعمَى وبوسَى
وعَاشَـرْتُ كُلَّ جَليـسٍ بمَـا   يُلائِـمُهُ لأروقَ الجَليسَـا
فعنْدَ الـرُّواةِ أديرُ الكَــلامَ   وبين السُقَاةِ أديرُ الكؤوسَـا
وطوراً بِوعْظي أسيلُ الدُّموعَ   وطوراً بِلَهْـوي أسُرُّ النُّفوسـا
وأقْري المَسَامِـعِ إمَّا نـطقْتُ   بياناً يَقُـودُ الحَرُونَ الشَّموسا
وإنْ شِئْتُ أرعَفَ كَفِّي اليَـراعَ   فسـاقَطَ دُراً يُحَلِّي الطُّروسـا
وكَم مُشْكِـلات حَكينَ السُهَـى   خَفـاءً فصِرْنَ بكَشْفي شُموسـا
وكَمْ مُلَـحٍ لي خلَبْنَ العُقُـول   وأسْأرْنَ في كُلِّ قَلْبٍ رَسيسـا
وعَـذْراء فُهـتُ بِهـا فانْثَنَى   عليها الثّنـاءُ طَليقٌ حَبيسـا
على أنَّني من زَمَانٍ خُصصْتُ   بكَيْدٍ ولا كيدَ فِرعَـونَ مـوسَى
يسَعِّرُ لي كُلَّ يـومٍ وغـى   أطامِنُ لَظاهَا وطيساً وطيسَـا
ويَطرقُني بالْخُطُـوبِ الّتـي   يُذِبْنَ القُوى ويُشِبنَ الرّؤوسـا
ويُدْني إليَّ البعيـدَ البغيـضَ   ويَبْعـدُ عنِّي القَـريبَ الأنيسـا
ولـوْلا خَسَاسَـةُ أخْـلاقِـهِ   لَما كَانَ حظّي مِنْهُ خَسِيسَا (الحريري، 2016م : 230) .

إنَّ حالة الاغتراب النفسي التي يعيشها البطل تظهر واضحة في هذه الأبيات ، إذ يشعر بأنه مضطر إلى ارتداء أقنعة مختلفة لكل موقف، مما يفقده هويته الحقيقية ويجعل شخصيته متقلبة وفقاً للظروف ، فهو يعبر منذ بداية القصيدة عن اغترابه عن ذاته الأصيلة ، إذ يقول : (لبست لكل زمان لبوسا)، وهو تعبير صريح عن اضطراره إلى التكيف مع كل زمان وحالة ،

ويؤكد أنه يتصرف بطريقة تناسب كل شخص يجلس معه (وعشرت كل جليس بما يلائمه)، ويشير إلى ذلك الفيلسوف الفرنسي (روسو) في قوله : ((يلاحظ غالباً أن معظم الناس، هم في مجرى حياتهم لا يشبهون أنفسهم ، وغالباً ما يبدو أنهم يحولون أنفسهم إلى أناس مختلفين تمام الاختلاف)) (رجب، 1988: 65) .

وبما أن الناس هم المصدر الأساسي لهذا الاغتراب فقد تغيروا كلياً ، ولم تعد وجوههم الخارجية تعكس حقيقتهم الداخلية (رجب، 1988 : 63) ، مما يرمز إلى فقدان الاتساق الداخلي ، أي أنه لم يكن على طبيعته بل يتكيف مع الآخرين بشكل متكلف ، ويظهر هذا التناقض في قوله : "فعند الرُّواة أُدير الكلام ، وبين السُّقاة أدير الكؤوسا" ، حيث ينتقل بين الجد والهزل ، وبين الحكمة واللهو، مما يعكس عدم استقراره على نهج ثابت، كما نراه يعزز ذلك في قوله : "وطوراً بوعظي أسيل الدُّموع، وطوراً بلهوي أسرُّ النفوسا" ، وهذا تناقض صارخ بين دور الواعظ ودور المسلي، مما يدل على عدم التوافق بين ما يظهره وما يشعر به داخلياً، ويتضح لنا شعور البطل أبي زيد السروجي بالقهر والخذلان الاجتماعي في قوله : "على أنني من زمان خصصتُ بكيد ولا كيد فرعون موسى"، حيث يشعر بأن القدر أو المجتمع يحيك له المكائد باستمرار ، مما يعمّق شعوره بالعزلة والاضطهاد ، كما أنه يشعر وكأنه في معركة دائمة ضد أعداء غير مرئيين "يسعر لي كل يوم وغى أطامن لظاها وطيسا وطيسا" فهذه صورة معبرة عن الصراع المستمر، فضلاً عن إحساسه بالغربة بين الناس (ويدني إليَّ البعيد البغيض ويبعد عني القريب الأنيسا)، وهو تعبير مؤلم عن فقدان الألفة مع من يفترض أنهم أقرب الناس إليه ، مما يعزز شعوره بالغربة الداخلية ، وبالتالي أن هذه الأبيات تصور لنا شخصية ممزقة بين أدوار مختلفة ، غير قادرة على التمسك بذاتها الحقيقية بسبب الظروف الاجتماعية والضغوط الحياتية ، فضلاً عن أنها تعكس صراعاً نفسياً عميقاً بين ما يريده البطل وما يُفرض عليه، مما يجعله في حالة اغتراب مستمر عن نفسه وعن الآخرين .

في ضوء ما تقدم ، يتضح أن الاغتراب عن الذات الأصيلة في المقامة العباسية ليس مجرد عنصر أدبي ، بل هو انعكاس عميق لتحولات المجتمع العباسي وظروفه القاسية ، فقد وجدت شخصيات المقامات نفسها ولاسيما شخصية البطل في صراع دائم بين هويتها الحقيقية ومتطلبات الواقع ، مما دفعها إلى التلون والخداع كوسيلة للبقاء، ويتجلى هذا الاغتراب في التنقل المستمر، والازدواجية في الشخصية ، والتناقض بين القول والفعل، حيث يبدو البطل وكأنه منفصل عن ذاته الأصلية ، متبنياً شخصيات زائفة تتغير حسب الحاجة .

الخاتمة

يخلص هذا البحث إلى نتائج عدة :

- أن شخصية البطل في المقامات العباسية كانت نتاجاً مباشراً لواقع اجتماعي مضطرب عاش فيه الإنسان بين الفقر والحرمان من جهة ، وتقلب القيم والمبادئ من جهة أخرى .
- فقدان البطل ارتباطه بذاته الأصيلة ؛ بسبب الظروف القاسية التي فرضها المجتمع العباسي .
- تقمص البطل لشخصيات متعددة ، والسبب في ذلك ليلائم كل موقف يمر به ، وهذا مما يجعله فاقداً لذاته الحقيقية .
- استطاع كتّاب المقامات أن يصوغوا من خلال شخصية البطل رؤية نقدية ثاقبة لواقعهم ، فحوّلوا المعاناة إلى فنٍ راقٍ يجمع بين السخرية والصدق ، وبين الطرافة والمرارة ، وهكذا غدت المقامة نصاً أدبياً يجسد الوعي الإنساني في أعمق صوره، ويكشف عن قدرة الأدب على تصوير الصراع الأبدي بين الإنسان وواقعه ، وبين ذاته الحقيقية وما يُفرض عليه من أقنعة وصور .
- لم يكن هذا الاغتراب مجرد حالة نفسية عابرة، بل هو تعبير عن مأساة وجودية عميقة عاشها الفرد في مجتمع تلاشت فيه الحدود بين القيم والمصالح ، وبين الفضيلة والحاجة .
- أن البطل في المقامات العباسية لم يكن مجرد شخصية فنية أبدعها خيال الكاتب ، بل كان صورة فكرية وإنسانية تعبّر عن وعي عميق بالتحولات التي شهدها المجتمع العباسي ، ورمزاً واقعياً لإنسان فقد انسجامه مع ذاته في ظلّ التحولات الاجتماعية والسياسية الكبرى .

المصادر والمراجع :

- إبراهيم، رجب عبد الجواد ، (2002م) ، تقديم : أ. د. محمود فهمي حجازي، مراجعة المادة المغربية : أ. د. عبد الهادي التازى ، المعجم العربي لأسماء الملابس، الطبعة الأولى ، دار الآفاق العربية ، القاهرة .
- الباهلي ، محمد ، (2008) ، مقال ، صحيفة الاتحاد ، aletihad.ae .
- بن اسباع، طارق، خالف، نورية، (2023) ، قهر الاغتراب وترياقاته عند إريك فروم ، مجلة دراسات في التنمية والمجتمع ، المجلد8 ، العدد1 .
- بن رويسي، زوبير، وحميدة، زهرة ، (2024) ، الاغتراب النفسي (مقاربة مفاهيمه) ، المجلد12، العدد1 .
- الجماعي، صلاح الدين أحمد ، (2010م) ، الاغتراب النفسي الاجتماعي وعلاقته بالتوافق النفسي والاجتماعي ، الطبعة الأولى ، دار زهران للنشر والتوزيع ، عمان .
- الحريري ، أبو محمد القاسمي بن علي بن محمد البصري (ت 519هـ) ، 2016م ، مقامات الحريري ، الطبعة الأولى، علق عليه وضبطه ووضع هوامشه : عزت زينهم ، دار الغد الجديد للطباعة والنشر والتوزيع .
- الحسين، أحمد ، (1995) ، أدب الكدية في العصر العباسي (دراسة في أدب الشحاذين والمتسولين) ، الطبعة الثانية ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، سورية - دمشق .
- حماد، حسن ، (2005) ، الإنسان المغترب عند إريك فروم ، دار الكلمة ، القاهرة - مصر .
- خليفة، عبد اللطيف محمد ، (2003) ، دراسات في سيكولوجية الاغتراب ، الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة .
- دمنهوري، رشاد صالح ، (1417هـ) ، الاغتراب وبعض متغيرات الشخصية، مركز البحوث التربوية والنفسية، مكة المكرمة .
- راجح، أحمد عزت ، (1999)، أصول علم النفس ، الطبعة الحادية عشر، دار المعارف ، القاهرة .
- الراوي، مسارع حسن ، (2002) ، الاغتراب والغربة في الفكر العالمي والتراث العربي الإسلامي ، العدد49 - 2 .
- رجب، محمود ، (1988) ، الاغتراب سيرة ومصطلح ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف - القاهرة .

❖ رياض، قزيحة ، (1998) ، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي، الطبعة الأولى ، المكتبة العصرية، بيروت ـ لبنان .
❖ زهران، سناء حامد ،(2004) ، إرشاد الصحة النفسية لتصحيح مشاعر ومعتقدات الاغتراب، الطبعة الأولى، نشر وتوزيع وطباعة : عالم الكتب ، القاهرة .
❖ عبد القادر، حامد ، (د. ت) ، دراسات في علم النفس الأدبي ، المطبعة النموذجية .
❖ عبد المنعم ، إيناس عماد، (2022م)، مفهوم الكدية في العصر العباسي (132 ـ 656هـ/ 750 ـ 1258م)، مجلة الآداب، الجامعة المستنصرية، المجلد2 ، العدد 141 .
❖ العنزي، صغير غريب عبد الله ، (1423هـ) ، الاغتراب في العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى .
❖ عوض، يوسف نور ، (1979) ، فن المقامات بين المشرق والمغرب ، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت ـ لبنان .
❖ الفلاحي، أحمد علي ، (2013م) ، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري (دراسة اجتماعية نفسية) ، الطبعة الأولى ، دار غيداء للنشر والتوزيع ، عمان .
❖ لرقم ، راضية ، (2019م) ، الانساق المضمرة للسخرية ودلالاتها في مقامات بديع الزمان الهمذاني ، مجلة اشكالات في اللغة و الأدب ، مجلد8 ، عدد3 .
❖ مرتاض، عبد المالك ، (1988) ، فن المقامات في الأدب العربي ، الطبعة الثانية ، الدار التونسية للنشر ، الجزائر .
❖ الهمذاني، أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى (ت398هـ) ، 2005م ، مقامات بديع الزمان الهمذاني ، الطبعة الثالثة، قدم لها وشرح غوامضها الإمام العلامة الشيخ محمد عبده، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان .